

معيّار الربح والخسارة في القرآن



يقول الإمام عليّ (ع): «ومَن قَمَّـرَ في أيام أمله قبلَ حضور أجله، فقد خسر عمله»[1]. وكتبَ (ع) إلى (مصلحة بن هبيرة الشيباني) الذي وعد بدفع حقٍّ مُترتّب بـذمّته وهرب: «فلا تستهن بحقِّ ربِّك ولا تُصلح دُنياك بمحقِّ دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً»[2]. وفي اعتبار آخر للخسارة، يرى (ع) أن الإغراق في دوامة المعاصي والابتعاد عن الطاعة خسارة: «احذر أن يراك عند معصيته، ويفقدك عند طاعته، فتكون من الخاسرين»[3].

أمّا (الربح)، فهو الزيادة الحاصلة نتيجة البيع، وقيل: «مَن نجا برأسه فقد ربح!» والربح: النماء في التجارة. يُقال: تجارة رابحة إذا ربح صاحبها زيادة في المال على ثمن بضاعتها؛ ولكن مَن يبيع (الهُدَى) والاستقامة بـ(الضلال) والانحراف، فإنّه تاجرٌ خاسر فاشل. يقول الإمام عليّ (ع): «وما أخسرَ المشقّة وراءها العقاب، وأربح الدعة معها الأمان من النار»[4]. وقال (ع) في قيمة العمل الصالح: «ولا تجارة كالعمل الصالح، ولا ربح كالثواب»[5]. ومن بليغ وعميق ما أؤثر عنه (ع): «فكم من منقوصٍ رابح ومزيدٍ خاسر»[6].

وعلى هذا، فإنَّ مقياس (الريح) و(الخسارة) - بحسب تحديد القرآن لهما - هو (خسارة النفس) و(خسارة الأهل): (إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الزُّمَر/ 15). وعبدَّ الرَّسولُ السيد المسيح (ع) عن ذلك بقوله: «ماذا يُجدي الإنسانُ نفعاً لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟! إذ قد تُعوَّض الخسائر كلها، إلَّا أنَّ هذه تبقى الأفدح بين سائر الخسائر الأخرى لأنَّها (كلّية) و(مُوجعة) و(مُفجعة) وغير قابلة للجبر أو التعويض!! ولذلك كانت الدعوة الدافعة لشبح هذا المصير الأسود هي: (فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) (التحریم/ 6).

والنتيجة الكبرى المستخلصة من بحث الريح والخسارة في القرآن، هي: أنَّ الدُّنيا - باعتباراتها المتضاربة المتصارعة - لا تصلحُ مقياساً لمعرفة الريح والخسارة، وإنَّما معيارهما الدُّنيا والآخرة معاً.. تأمّل في طائفة الخسائر التي يؤشّر لها القرآن بإشارات واضحة وصريحة:

1- الفساد.. خسارة:

قال تعالى: (الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (البقرة/ 27).

2- ابتغاء غير الإسلام.. خسارة:

قال عز وجل: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران/ 85).

3- إطاعة الكافرين.. خسارة:

قال جلّ وعلا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَطْيِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ) (آل عمران/ 149).

4- تكذيب الأنبياء والرُّسُل.. خسارة:

قال سبحانه: (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ) (الأعراف/ 92).

5- اللهو بالباطل.. خسارة:

قال جلّ جلاله: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُوقِعُ مَنَازِلُ الْغُلَامِ الْأُولَى) (الجاثية/ 27).

6- الخبث واللوم والشيطنة.. خسارة:

قال تبارك وتعالى: (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (الأنفال/ 37).

7- اتِّباع الشيطان وتقوية حربه.. خسارة:

قال تقدّست أسماؤه: (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنزَلْنَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (المجادلة/ 19).

8- التكذيب بالمعاد وإنكاره.. خسارة:

قال تبارك وتعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا) (الأنعام/ 31).

9- العبادة الحرفية المصلحية.. خسارة:

قال عزّ وجلّ: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الَّذِينَ لَا

وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (الحج / 11).

والمقصود بـ(على حرف) أي على جانب الطمع والريح والانتفاع فقط.

10- قتل النفس المحرمة [7].. خسارة:

قال جلّ شأنه في قتل قابيل لأخيه هابيل: (وَطَاوَعَتْ لَه لَه رَفْسُهُ فَتَلَّ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (المائدة / 30).

11- إطاعة غير الله تعالى.. خسارة:

قال سبحانه: (وَلَا تَتَّبِعُوا أَطْعَافَكُمْ بِشَرِّ مَا مَنَعَكُمْ إِن نَزَعْنَاهُ مِنْكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ) (المؤمنون / 34).

12- ظنّ السوء بالله عزّ وجلّ.. خسارة:

قال تعالى: (وَذَلِكُمْ طَغَتْ كُفْرُ الَّذِينَ طَغَوْا بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَن تَصْبِحُوا مِنْ الْخَاسِرِينَ) (فُصِّلَتْ / 23).

13- الانشغال السلبي بالأموال والأولاد.. خسارة:

قال عزّ وجلّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (المنافقون / 9).

14- الظلم بأنواعه.. خسارة:

قال جلّ وعلا: (إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ) (الشورى / 45).

15- تصوّر الإساءة إحساناً.. خسارة:

قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي
الدُّنْيَا الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (الكهف/ 103 - 104).

هذه هي مجمل (الخسائر) التي نذير القرآن وأشار إليها وحذر منها، وما عداها فأرباح، كما
سيأتي.

هذا وقد ترجمت الأحاديث والروايات تلكم الخسائر في أقوال مبلورة لمعانيها من قبيل قوله 6: «الخاسر
مَن غفل عن إصلاح المعاد» [8]. وعنه 6: «المُنْفَق عمره في طلب الدنيا خاسرُ الصفقة، عادم
التوفيق» [9]. وعن الإمام عليّ 7: «أخسرُكم أظلمُكم» [10]. ورُوِيَ عن الإمام محمد الباقر 7 في قوله
عز وجل: (هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا)، قال: «هم النصارى والقيسوس
والرُّهبان [11] وأهل الشُّبهات والأهواء من أهل القبلة والحرورية (الخوارج) وأهل البدع» [12]،
والمتطرِّفون المغالون عموماً.

[1] - نهج البلاغة، تنظيم صبحي الصالح، الخطبة 28، ص71.

[2] - المصدر نفسه، الكتاب 43، ص415.

[3] - المصدر نفسه، قصار الحكم/ 383، ص544.

[4] - المصدر نفسه، قصار الحكم/ 37، ص475.

[5] - المصدر نفسه، قصار الحكم/ 113، ص488.

[6] - المصدر نفسه، الخطبة 114، ص170.

[7] - النفس المحرّمة: البريئة التي لم ترتكب جرماً تستحق عليه القتل، كفسادها أو قتلها لنفس
أخرى.

[8] - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، ج2، ص118.

[9] - المصدر السابق نفسه، ص119.

[10] - غرر الحكم ودرر الكلم، الفصل8، رقم12، ص185.

[11] - الذين أحلّوا حراماً وحرموا حلاله وليس كلّهم قاطبة.

[12] - نور الثقلين، 3 / 312.